الشعراء الصعاليك

الصُّعلوك : هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يدا واحدة. و أن هذه اللفظة تجاوزت دلالاتها اللغوية وأخذت معاني أخرى كقطاع الطرق الذين يقومون بعمليات السلب والنهب.

الصعاليك اسم يطلق على جماعة من العرب في عصر ما قبل الإسلام، عاشوا وأطلقوا حركتهم في الجزيرة العربية؛ وينتمون لقبائل مختلفة. كانوا لا يعترفون بسلطة القبيلة وواجباتها، فطُردوا من قبائلهم. ومعظم أفراد هذه الجماعة من الشعراء المجيدين وقصائدهم تعدّ من عيون الشعر العربي.

امتهن الصعاليك غزو القبائل بقصد الاخذ من الاغنياء وإعطاء المنبوذين أو الفقراء، ولم يعترفوا بالمعاهدات أو الاتفاقيات بين قبائلهم والقبائل الأخرى ما أدى إلى طردهم من قبل قبائلهم، وبالتالي عاشوا حياة ثورية تحارب الفقر والاضطهاد وتسعى للتحرر في شكله المتمرد.

واصطبغت أدبيات الصعاليك برؤيتهم عن الحياة فجاءت معظم قصائدهم تحكي عن شجاعتهم وقدرتهم وتحديهم للمجتمع. وشعرهم يمتاز بقوة العاطفة وسعة الخيال وفيه من الحكمة الشيء الكثير. ومن مميزات شعرهم الخلو من المقدمات الطللية فكانوا أول من كسر بنية القصيدة الجاهلية كما خلا شعرهم من المدح والطول فانتهجوا شعرا جديدا.

أقسام الصعاليك

ويمكن تقسيم الصعاليك إلى ثلاثة فئات:

فئة الخلعاء الشذاذ وهم الذين خلعتهم قبائلهم بسبب أعمالهم التي لاتتوافق مع أعراف القبائل التي ينتمون إليها، مثل: حاجز الأزدي، قيس الحدادية .

وفئة أبناء الحبشيات السود ممن نبذهم آباءهم ولم يلحقوهم بأنسابهم ، مثل: السليك بن السلكة، وتأبط شرا، والشنفرى.

وفئة احترفت الصعلكة احترافاً وحولتها إلى ما يفوق الفروسية من خلال الأعمال الإيجابية التي كانوا يقومون بها، مثل: عروة بن الورد.

أشعارهم وصفاتهم

وما يلفت النظر في أشعار هؤلاء الصعاليك ترديد صيحات الفقر والجوع والحرمان ، كانت غاراتهم تتركز في المناطق الخصبة وترصد قوافل التجارة وقوافل الحجاج القاصدة مكة المكرمة ، وكثيراً ما تغنوا بكرمهم وبرهم بأقاربهم؛ لأن ما يحصلون عليه كان يوزع على الأهل والأقارب المحتاجين، كما اتسمت لغتهم الشعرية بالترفع والسمو والشعور بالكرامة في الحياة .

والحقيقة أن الصعلكة أخذت شكلاً إيجابياً رغم أنها قامت على السلب والنهب، لأن المقصد من هذا الفعل كان يرمي إلى إطعام الفقراء من أموال الأغنياء وكأنهم يؤكدون أن للفقير حقا في مال الغني.

ميزة أخرى غلبت على هؤلاء الصعاليك وهي عدم تعرضهم في غاراتهم وغزواتهم للأسياد الشرفاء وإنما للأغنياء الأشحاء وهذا المبدأ تمثله سيد الصعاليك عروة بن الورد. كما عرف عن هؤلاء الصعاليك اعتزازهم بأنفسهم وهذا الاعتزاز نابع من مدى قناعتهم بالفعل الذي يقومون به، يقول الشنفرى:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

حتى أنه يفضل أن يستف التراب على أن يتفضل عليه إنسان لأنه يملك نفساً حرة أبية تأبى الضيم:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستف ترب الأرض كي لايرى له علي من الطول امرؤ متطول

كما أنهم أضفوا على أنفسهم صفة الكرم إلى حد الافراط حتى أن تأبط شرا لم يبق على شيء لغده:

الصعلوك كان يصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية الفردية مظهرًا من مظاهر التمرد، وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك، فيتخلى المجتمع عنه، وتحرمه قبيلته حمايتها

وتتردد في أشعارهم جميعًا صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء الأشحاء، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وسرعة العدو؛ حتى ليسمون بالعدائين، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو؛ فيقال: "أعدى من السليك" و"أعدى من الشنفرى"، وتُروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب؛ من ذلك ما يقال عن أحدهم ويسمى تأبط شرًّا من أنه كان أعدى ذي رِجلين وذي ساقين وذي عينينِ. وكما كانوا يحسنون سرعة الجري والعدو كان كثير منهم يُحسن ركوب الخيل والإغارة عليها.

فلسفة الصعاليك

لقد كان الصعلوك على هذا النحو من الأخبار التاريخية والمعاني اللغوية، يبدأ فقيرًا ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذي فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية، وأن يخرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه، ولكنه -من أجل هذه الغاية- لا يسلك السبيل التعاوني، وإنما يدفعه موقفه البائس، وشخصيته غير المتعاونة إلى سلوك سبيل الصدام والصراع.

إن الصعلوك كان يصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية الفردية مظهرًا من مظاهر التمرد، وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك، فيتخلى المجتمع عنه، وتحرمه قبيلته حمايتها، ويعيش الصعلوك خليعا مشرّدًا، أو طريدًا متمردًا، حتى يلقى مصرعه، أما أعداؤه فقد استراحوا

من هذا الفزع الذي كانوا يترقبونه كل حين كما يترقب غائبا منتظرَاَ أهلُه -على حد تعبير زعيم الصعاليك عروة بن الورد .

لقد استمرت مشكلة الصعاليك لفترة طويلة، يغيرون ويأكلون وينفقون على أنفسهم ومن يرونه فقيرا مثلهم من مال الأغنياء الأشحاء، ثم في أوقات الصفاء أو الكدر والعناء يبرعون فيما يبرع فيه العربي القديم، في الشعر، وقد ساعدهم على استمرار وجودهم طبيعة الجزيرة العربية القاسية، حيث الجبال والوديان الوعرة، وصعوبة اللحاق بهم، أو العثور عليهم بسهولة.

ولذلك لا عجب أن تجد في شعر العرب عامة، والصعاليك خاصة ما يصور لنا جانبا من طبيعة البيئة القاسية التي كانوا يحيون فيها، فتارة يصفون شدة البرودة، وتارة شدة الحر والهجير والرمضاء .

كلُّ شيء في هذه الصحراء إذن قاس وعنيف، فلا عجب أن تنجب أبناء قساة أشداء يألفونها، ويحيون فيها، لما تُيسّره لهم من الاختفاء في مجاهلها، وجبالها ومتاهاتها، لذلك نجد أن الصعاليك على الرغم من نشأتهم في أماكن قريبة من الخصب إلا أنهم يفضلون دائما أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة صعبة المنال، فنجدهم يألفون الجبال والقفار والأماكن التي يخشى غيرهم ارتيادها .

أمير الصعاليك : عروة بن الورد

لقد انقسم الصعاليك من ناحية النوازع الداخلية إلى فريقين، فهناك الشخصية المتمردة التي رأت في هذه الحركة فرصة سانحة تظهر فيها بطولتها الفردية، وتستغلها إلى أبعد حد في إرضاء ما في نفسها من نزعة شريرة تصبغ حياتها كلها بلون من الدم الأحمر القاني محبب إليها لا يرضيها إلا أن ترى تلك الرؤوس اليانعة، ورؤس الأغنياء المترفين تتطاير تحت ضربات سيوفها، ولا يبالون كذلك بأن يوجهوا حركتهم هذه ضد أية جماعة من الناس لا ترضى عنهم.

فقد كان أبوه من شجعان قبيلته وأشرافهم كما كان له دور البارز في حرب داحس و الغبراء. أما أمه فكانت من نهد من قضاعة وهي عشيرة وضيعة وهذا ما جعل عروة يشعر بالعار وقد عبر عنه بقوله:

وما بي من عار إخال علمته سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهد

ويبدو أن هذا العار الذي كان يحسه هو الذي دفعه إلى دروب الصعلكة والثورة على الأغنياء. وعروة لم يخلع من قبيلته كغيره من الشعراء الصعاليك وإنما ظل يحتل مكانة كبيرة فيها، وقد اتصفت صعلكته بكل جوانب المروءة والإخاء والتعاون والتضامن الاجتماعي، إذ كان يغير على القوافل ليس بقصد السلب والنهب وإنما كان يغزو لإعانة الفقراء والمرضى والمحتاجين والمستضعفين من قبيلته وهؤلاء كانوا دوماً يصرخون بأعلى أصواتهم: "أغثنا يا أبا الصعاليك".

ولأنه لم يكن يغير إلا على الأغنياء الذين عرفوا بالشح والبخل وعدم مد يد المعونة إلى أحد وخاصة المحتاج لذلك اكتسبت صعلكته نبلاً أخلاقياً أكبر من الفروسية . وهو الذي لايستطيع القعود عن الغزوات لأن عليه حقوقاً وواجبات يجب أن يؤديها إلى المحتاجين من قبيلته ونسائها المعوزات لهذا فهو يكره الصعلوك الخامل بل يحب الصعلوك المشرق الوجه وفيه يقول:

ولله صعلوك صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر

وإن بعدوا لايأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر

فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

وهكذا نجد أن عروة بن الورد كان صعلوكاً شريفاً وشجاعاً ومقداماً وقد استطاع أن يجعل من الصعلكة ما رفعها إلى درجة المروءة والسيادة لأن الغرض منها كان نداءً يدعو للتضامن والتكافل الاجتماعي الذي يراد منه في النهاية الخير للجميع وخاصة الناس المعوزين من الأهل والأقارب بل هي تأكيد بأن للفقراء حق في مال الأغنياء.